

باب أميل القرن التاسع عشر

﴿ أميل القرن التاسع عشر ﴾

(١٢) من هيلانه الى اراسم في ٢٥ مارس سنة ١٨٥٠

كتابي اليك وقد استقرّ بي النوى الآن في انكثرا الكاشفك فيه ما وجدته في هذه البلاد فأقول . استأجرت مساء يوم الاثنين الماضي عجلة اجتزت بها ما بين القنطرة المسماة بقنطرة لوندرد ، لندن بريدج ، والميدان المعروف بميدان أوستون وكأني بك سائلي عما شاهدته من عاصمة الجزائر البريطانية . اني لم أرمها شيئا او ان مارأيته لا يكاد يكون شيئا يذكر . كنت أحس احيانا بانني أدور في الظلام مع العجلة اثناء جريها في الميادين الفسيحة المحتفة بالبساتين والبيوت التي كنت اخلها مهجورة وكنت ارى عقيب ذلك من كوتي العجلة شوارع طويلة تمتد ذات اليمين وذات الشمال تحيط بها المخازن التجارية من الجانبين ويمتد في كل منها على جانبيه صفان من المصابيح الغازية فكنت تارة اجدني في ظلمات متكاثفة الحجب وأخرى كنت اراني بين طوائف من تلك المصابيح غير منتظمة . وقد كان منظر ضوءها المنعكس على رصف الشوارع المبللة وعلى وقائع (١) الطريق وجملة اهل المدينة الذين كانوا يغدون ويروحون وسبات الهم والاشتغال بادية على وجوههم وجلبة الغوغاء (٢) التي كان يتعاورها السكوت فبما كل ذلك كان نمر يا عندي غير معبد لدي . كانت السماء تمطر وكان لا مطر .

(١) الوقائع جمع وقعة وهي الماء المستقم الذي يكون في الطين (٢) الغوغاء عامة

الناس وجابهم انظهم الغير المفهوم

ذلك أنها كانت ترهم أرها، أخفياً جداً (١) يقول رأيته أنه لا بد أن يستمر هكذا ألف سنة. قد حصل في ذهني من سفري هذا في سدف الظلام مجتازة مستنقعات الماء جائلة فيما اجبهه من الأماكن صورة مدينة لأول لها ولا آخر فيها كثير من ضروب العظمة والبذخ وكثير من أنواع الحفارة والمسكنة فهل هذه لو ندره ؟ .

تبوات المنزل الذي كانت وصفته لي السيدة . . . فألقيت كل ما فيه غاية في النظافة والهدوء والنظام . قدم لي العشاء في غرفة خاصة منه فيها كفايتها من الفرش وهي ماصقة للغرفة التي أعدت لنومي . وقد راعني من خادمة المائدة جمالها البارع فبعثني ذلك على مراجعة ذاكرتي لأدكار القليل من الإنكليزية الذي كنت تعلمته في المدرسة لمخاطبتها بلقبها فسكنت أجوبتها لي في غاية الاختصار ولم ألبث أن فهمت من احتراسها في كلامها، وعهور سيم الخيرة على وجهها أن الخادومات الإنكليزيات لا يخفن بمخاطب الخدم أباهن خلافا للفرنساويات . أن الذي أدهشني كثيراً في هذا المنزل أن أهله لم يسألوني عن اسمي ولا عن حقيقة أمري عجباً لهذه البلاد التي لا يظهر أن أهلها يعتقدون أني ما أتيت بلادهم إلا لقلب حكومتهم (تريد التعريض ببلادها الفرنسية) . أتباعاً لنصائحك قد اهتديت إلى محل الدكتور وارنجتون وذهبت إليه في ثاني يوم من وصولي وقدمت إليه مكتبك فما كاد يأتي على آخره حتى تذكر اسمك وتلقاني تلوح عليه علامم الوقار الفطري

أنشأ هذا الدكتور مخاطبني بالفرنساوية وهو يحسن الكلام بها بعض الاحسان فقال . « لقد اصاب زوجك في ارسالك إلى بلاد اجنبية فسترتاح نفسك إلى المقام في انكناز بما ستجدينه فيها من اعتدال الصحة إلا اني

(١) ارهمت السماء جاءت بالرحمة وهي المطر الخفيف المتواصل

انصح لك بان تقيمي في الارياف فانها اجود مناخاً وأصفي هواءً فان
السكنى في الخواضر العظيمة لانلام النساء في الطور الذي انت فيه الآن
ولا نلام الاطفال ايضاً. وقد انشأ الكبراء من تجارنا في لوندريه يفهمون مزايا
الاقامة في القرى ويقدرونها حق قدرها فترينهم لا يعبأون بالسفر مرتين كل
يوم في السكة الحديدية ولا بما يضيئه عليهم هذا السفر من الفوائد الكثيرة
التي منها الحضور في ناديهم مثلاً وذلك ليمتعوا اسرهم بقاليل من نصارة
الخضرة ومنافع الشمس فهم يصرفون بذلك نساءهم عن التردد على معاهد
التمثيل ومواطن اللهو الليلي . لكل امرئ منهم نصيب من فائدة هذه
الاقامة وللاطفال الحظ الاوفر منها حيث ينشأون في كمال الصحة من هذه
المعيشة المطلقة في هواء الفضاء ولا يكاد يرغب عن ذلك الا الفنجيات
التورنات (١) اللاهيات بالتافه والمحقرات . ولكن ما الحيلة في ارضائهن
وللامومة واجبات لا بد من اداها . تأمل في الاطفال الذين يتربون في المدن
الكبيرة الا ترين معظمهم شاجبي الالوان سقيمي الاجسام كالنباتات الموشمة
(النابتة) في الظل المرومة من ضوء الشمس وحرارتها . انظنين انهم على هذا
الضعف يزادون في عقولهم بقدر ما يخسرون من صحتهم ؟ كلا اني لا ارى
هذا صوابا لان جوّ المدن الذي افسده ما فيها من ضروب اللذائذ وصنوف
الاعمال لا يلام بحال من الاحوال نموّ العقل الخلقى وان الاطفال ليبلغون سن
الرجولية قبل ابائه بتأثير تلك الحرارة الصناعية التي في المدن الا انهم في
الغالب يكونون رجالا ناقصين لا يبلغون في الكمال الدرجة المطلوبة .
فاه الدكتور بهذه الكلمات الاخيرة وابتمس ابتساما انتهى بظهور

خطوط أفقية على وجهه السكسوني المستدير الذي يشرف منه على خديه شعر
الصدغين القصير الذي قد وخطه الشيب ثم استأنف الخطاب فقال
دعيني أتولى امر سكناك في الخلاء فإن لي صديقا يملك في قرية مرزيون
بيتا للزهوة فيه شيء من الجمال والنظام وموقعه تجاه خليج بنزاس وهو يبحث
عن مستاجر يؤجره له بجميع أثاثه ورياشه لانه على وشك الرحيل الى ايطاليا
للمقام بها لاسباب صحية . فأنا ارغب اليك في الذهاب الى هذا البيت ورؤيته
وأحثك على ذلك وأرى ان في هذا السفر تسلية لك وترويحاً وانى لو كنت
طبيبك لكان من أوّل ما صفة لك تبديل الهواء . كوني على ثقة بان آلام
النفس تزول بتغير المؤثرات فقلما يوجد من هذه الآلام ما يتعاضى على هذا
التغير كما ثبت لي بالتجارب . فان الانسان اذا رأى مشاهد خلوية جديدة
يحى حياة جديدة . وليس لي ان امدح لك اميرية (كوتية) كورنواي (١)
فانها مسقط رأسي . على ان الناس قد اجمعوا على القول بانها اكثر جهات
بريطانيا العظمى اعتدالا في الاقليم وانها هي التي يعيش في ارضها الريحان
والعطر والعود معرضة لهوائها المطلق في جميع الفصول . ان كنت ممن يروقهن
منظر الصخور فانك ستشاهدن هناك منها جميع الاشكال في ابهج الاوضاع
واجدرها بالتصوير . أنا لا اعرف حق المعرفة مقدار الاجرة التي يطالبها صديقي
في سكنى بيته لكي لا اشك في انه لا يخرج عن الاعتدال فيما يطلبه . ستجدن
في بنزاس زوجتي السيدة وارنجتون فانها هناك هي واسرتها حتى الآن
وستقبلنك باستقبالك . اما أنا فاذهب لزيارتها واستنشاق هواء مولدي كلما تيسر
لي الخلاص من اشغالي في لوندرة فاننا معشر الانكيز لا نقدر على اطالة الشواء

(١) الكوتية هي ارض الكونت وهو الشريف من اشراف فرنسا الغابرين

في مكان واحد فالحركة والفضاء من حاجتنا. ما كان اجدرنا باختراع الآلة البخارية وقد اخترعناها ولا عجب. واصبحنا بسبب هذا الاختراع اقل الام تقيراً فانتنا مع سفرنا الدائم في اقامة مستمرة لانا في اوطاننا انما كنا .
 افترقت انا والدكتور على احسن حال من الوفاق والمودة وقد خاطبني في شأنك بما شف لي عن كثرة اجلاله لك واعظامه لقدرك ولقد لمح لي مرة واحدة في مطاوي كلامه تلميحاً خفياً الى ما انا فيه من الفرقة الحاضرة فأبان لي به عن عطف على وميل الى ولم يسترسل استرسال الناس في عبارات التعزية والتسلية التي كثيراً ما اذلتني وهضمتني حق ادلا لي بصفة الزوجية .
 تم الاتفاق بيننا على ان اسافر في الغد الى كورنواي وانما عجلت بالسفر لاستقر في مكان ما وقد رضيت هذه البلدة لي مقراً لان جميع الامكنة التي لا اراك فيها سواء عندي

لما وصلت الى بنزس اثناء الليل نلتني السيدة وارنجتون عند نزولي من عجلة المسافرين وكانت في انتظاري لان زوجها كان كتب اليها بذلك .
 اذا اردت ان تخيل صورة هذه السيدة فمثل لنفسك امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ليست حسنة الوجه ولا دميته ولكنها محبوبته سوداء العينين والشعر خنساء الانف عظيمة القم باسمته سمينة قصيرة على انها خفيفة نشيطة قد اوتيت حظاً وافراً من الحنان والرافة . لقد كثر ما لاحظت انه في بعض الاحوال يوجد بين شخصين مختلفين في الذكورة والانوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين افراد اسرة واحدة مع ان كلا منهما يكون اجنبيا من الآخر من كل الوجوه . اتدري من الذي حضرت صورته في ذهني لما وقع بصري على السيدة وارنجتون ؟ ذلك هو صديقك يعقوب نقولا ختني اراه

بذاته في زي امرأة . حمل امتعتي خادم كان يصحب هذه السيدة فوضعها في عجلة ركبناها فاوصلتنا الى منزل الدكتور الريفي . لهذا المنزل منظر بهيج اذا شوهد ليلا في ضوء السماء فانه لما كان مبنيا بالصوان كعظم بيوت التنزه الخلوية والاكواخ التي في تلك الجهة كان لجارته صفائح من اليرمع (١) والمهو (٢) تلمع كأنها شهب تساقط من القصر . وفي النهار ايضا له نوع آخر من جمال المنظر فانه قائم في وسط حديقة من الاشجار المجلوبة من البلاد الاجنبية ذات الالوان اللطيفة المختلفة وينبسط على طول مقدمه ايوان مسقوف تتسلقه شجيرات الغوشياء (٣) التي ترتفع ارتفاعا غير معهود فهو مزدان من داخله وخارجه بزينة بديعة من الازهار لم ترعيني مثلها ابدا . ان لبيوت النبات الزجاجية المحل الاول في التنظيم هذه الدار على ما ارى . لا جرم ان مثل هذه البساتين المسقوفة بالزجاج تزيد المعيشة الاهلية نضارة وحسنا . الغرفة التي تفضل على أهل هذا البيت الكريم باعدادها لي وأحلتنيها السيدة وارتجتون نفسها بما أوتيته من كامل اللطف وفناء الظرف يخالها الانسان جنة لو ان للارواح الوحيدة الجريمة أفندتها من الحزن جنة في هذه الدنيا . . . من محاسن هذه النرفة اني عند ما أهب من نومي فيها أسمع تغريد القنبرة فيروقتني لحنا .

السيدة وارتجتون هي والدة كاملة عاقلة فانها تقسم وقتها قسمين أحدهما لتربية أولادها والثاني للعناية بامرازها ولها من كل قسم منهما شيء من الفراغ

(١) اليرمع حجارة بيض تلمع في الشمس (٢) المهو حجر ابيض يقال له بمناق القصر
(٣) الغوشيا شجيرة افريقية . معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتتنوع ازهارها في اشكالها والوانها وسهولة نرسها وهي من اشجار الزينة

يكفيها للمطالعة وهي على بعدها عن الدعوى بالاحاطة بالعلوم في المنطوق
 والمفهوم لها في طرق الاستدلال على مواضع شتى أحكام صائبة وآراء سديدة .
 اسرة هذه السيدة يعجب بها من من يراها فبنتها الكبيرتان اللتان احدهما
 ربما كان عمرها سبعة عشر ربيعا - كما كانت يقال في تقدير السن سابقا -
 لكل منهما وجنتان يدوب منهما الورد غيرة وحسداً . وبعد هاتين البنتين صف
 من بنات أخريات وبنين يتكون فيه من اختلاف رؤسهم بالصغر والكبر
 وتباينهم بالطول والقصر نظام محوي أجمل الفروق وأبهاها . كثيرا ما كنت
 أسمع ان النساء الانكليزيات تثر (كثيرات الاولاد) ولكن الله اكبر
 ما هذا الزخرف زخرف الشعور الشقراء والاكتاف المكشوفة والالوان
 الزاهية الغضة التي ما كنت أسمع بها ! اه

آثار علمية

(بدع رجب) اذا خذل الله أمة من الامم فانها تختار الضار وتبذل النافع وتأخذ
 بالشر وتدع الخير وتستبدل الرذائل بالفضائل والسعادة بالشقاء وتترك لسان الدين
 وتناهي بالفشور ويحسن لها علماءؤها القبيح بالتأويل . ويكون هديهم عين التضليل .
 لا تحضر في هذا الشهر جمعة في مسجد الا وتسمع فيها الكذب على الرسول صلى الله
 عليه وسلم على المنبر حتى منبر الازهر والعلماء ناكرو رؤسهم لا ينكرون على خطيب
 وانما يقررون الخطباء اقرارا . وقد اتفق علماء الحديث على ان كل ماروي في صيام
 رجب موضوع او وادلاصل له وانذ كر بعض الاحاديث الموضوعة في رجب وصومه
 لا تحدر منها فتقول . قال المحدثون « حديث » رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان
 شهر أمي فمن صام في رجب يومين فله من الاجر ضعفان وزن كل ضعف مثل جبال
 الدنيا الخ موضوع وفي اسناده أبو بكر بن الحسن النقاش وهو مهم والكسائي مجهول .